

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! ما أحبَّ صوتك إلى نفسي إذا جثم الليل، وهداً الكون، ونامت الحياة، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم، أمانة لا تخاف، صامته لا تسمع! إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح ليذكرني روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يُسمع الصوت فيه مهما يرتفع، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث.

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! ادنْ مني إن كان من أخلاقك الدنو، وأنسْ إليَّ إن كان من خصالك الأُنس إلى الناس، واسمع مني وتحدث إليَّ، وهلمَّ نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرّها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت، وعن هذا الدم البريء الذي سُفك.

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات تردّدت في ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ أذنّاً ولم تصل إلى قلب، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أُعدت له إعداداً، ثم هيل التراب وسويت الأرض، وأنت تدعو ولا من يستجيب، وأنا أستغيث ولا من يُغيث، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق، ورجل متقدم في السن قد قام غير بعيد يُسوي الأرض، ويصب عليها الماء، ويردها كما كانت، ثم ينتحي قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب، ثم يرتفع صوته أمراً أن هلمَّ فقد آن لنا أن نرتحل.

منذ ذلك الوقت تمَّ العهد بينك وبينني أيها الطائر العزيز على أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نتأّر لهذه الفتاة التي غودرت في هذا الفضاء، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر، ليكون في ذكرنا إياها وفاءً لهذه النفس التي أزهقت، ولهذا الدم الذي سُفك، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم وردَّ الأمر إلى نصابه، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الرّيّ حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها.

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! إنا لنلتقي كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث، أفدعني أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق، والدماء البريئة من أن تُراق؟!